زيارة تربوية

مكتبة معهد العالم العربي في باريس

أطفال قرّاء وأطفال مؤلفون

كان الأطفال موزعين بشكل تلقائي، منهم من كان يجلس أمام شاشة الكمبيوتر، ينقر كلمة «دخول» ليصل إلى مربعات تحوي مفردات مختلفة، يلعب بالكلمات التي يألف بعضها، وبعضها الآخر غامض يخلق أمامه تحديا ممتعا لاكتشاف معناها. منهم أيضا من كان يجلس على كرسي صغير يستند بيديه حول كتاب أمامه ويقلب صفحاته، أستطيع أن أر ابتسامة تعلو وجهه وهو يقلب صفحات الكتاب. ومنهم من كان يقلّب نظره بين الكتب باحثا عن كتاب ما لا أعرف ما هو، وربما هو أيضا لا يعرف ما هو، يبحث عن كتاب يستوقفه، يجذب انتباهه ويأسره في تلك اللحظة.

هكذا كان الأطفال موزعين في هذه المكتبة المليئة برفوف الكتب، حيث القصص والأناشيد والمعاجم والفهارس المناسبة لأعمارهم ولخيالهم الذي لم تثقله القيود والقواعد بعد.

مقابل هذه المكتبة هناك غرفة أخرى يدخل إليها مجموعة من الأطفال، كان من الواضح أنهم مجموعة من صف واحد، فأعمارهم تبدو متقاربة. يدخلون تباعا، ثم يتحلقون حول طاولة طويلة تتوسط منتصف الغرفة، وجوههم متقابلة حول الطاولة التي يقف عند نهايتها معلم، كان يبتسم لحظة دخولهم إلى القاعة، مهيئا نفسه لهذا اللقاء، حيث كان يحمل بيده أوراقا كبيرة مرسوم عليها كلمات من اللغة العربية بخطوط مختلفة، النسخ، الديوان... يستغرق الأطفال على الطاولة في كتابة صامتة والمعلم يدور بخفة من ورائهم ملقيا نظرات خاطفة كي لا يشعروا بوجوده كما يبدو. ثم يتناوب الأطفال بإشهار كتابتهم أمام المعلم وأمام زملائهم. ثم يتناوبون في الذهاب إلى الصبورة... يرسمون الكلمات ثم يعودون إلى كراسيهم لإلقاء نظرة متفحصة على ما رسموه.

الأطفال في المكتبة من أعمار مختلفة، من خمس سنوات حتى الثالثة أو الرابعة عشرة، بعضهم جاء مع أمه أو أبيه، حيث تركوه يسرح بين كتب المكتبة، يجلسون للنظر إليه وانتظاره، أو يقومون بمساعدته إذا تعسر أمر البحث على الطفل. أو هو بدوره يتوجه لقيّمة المكتبة التي تنتبه لإغلاق الباب بعد دخول كل شخص إلى قاعة المكتبة، حفظا للهدوء. وبعضهم جاء وحده أو مع زملائه إلى المكتبة، وبعضهم الآخر قد جاء في المرة الأولى من خلال زيارة مدرسية، ثم أصبح يأتي إليها بشكل فردي وشخصي.

بعضهم يقرأ وبعضهم «يلعب» بالبرامج العلمية واللغوية في الكمبيوتر.

بالإضافة إلى الكتب، هناك أيضا ألعاب علمية، وألعاب من قطع خشبية صغيرة. ومجلدات أنيقة الألوان تحوي صورا ورسومات زاهية لحيوانات مختلفة ومشاهد طبيعية خلابة.

أيضا ، ملصقات معلقة على جدران المكتبة، وخارطة الوطن العربي التي تمتد على منتصف الجدار.

أما أثاث المكتبة فكان يضفي راحة وهدوءا على جوها ، كانت الكراسي الصغيرة المريحة، والمساحة الكافية لغرفة المكتبة التي تمتد لعدة أمتار أمام الأطفال.

في الغرفة المقابلة، كانت نقوش ورسوم لكلمات باللغة العربية تملأ جدران الغرفة، وهذا بالطبع لأن الغرفة هناك هي لتعليم الخط العربي، كفن، كرسم.

الكتب المصفوفة على رفوف المكتبة يحمل بعضها اللغتين العربية والفرنسية في صفحات الكتاب نفسه، وبعضها الآخر عبارة عن كتب بلغة واحدة، عربية أو فرنسية.

العديد من كتب الأطفال هذه قد صدرت عن معهد العالم العربي بالتعاون مع دور نشر فرنسية مثل:

L'harmattan, Syros, Thierry Magnier

وكتب صدرت عن دور نشر عربية في لبنان والمغرب ومصر والجزائر والسعودية...الخ.

وهذه الكتب في معظمها قصص وحكايات شعبية من مختلف البلدان العربية، قصص لمؤلفين عرب وأجانب، مناسبة لأعمار مختلفة من الأطفال وذات مواضيع متنوعة، تتناول الطبيعة والجغرافية والتاريخ والأدب.

وهناك قصص تعاون في تأليفها بشكل مشترك كاتب عربي وفنان فرنسي أو العكس، مثل قصة «نصف فولة» «الأميرة المتنكرة» و«أمير الجان» و «نور والدوري» ، القصة الأخيرة على سبيل المثال، كتبها الكاتب جهاد درويش باللغتين العربية والفرنسية وقامت برسم رسوماتها الفنانة الفرنسية فرانسواز. تتحدث القصة عن طفل اسمه نوري قام بمعالجة عصفور مصاب في إحدى ساقيه، فاستعاد قدرته على الطيران، ثم في نهاية القصة تصبح العصافير صديقة له. وحين يموت نوري بسبب قصف طائرة لحارته فإن العصافير تقوم بالتجمع كل يوم على قبره.

وهناك أيضا قصص مترجمة عن حكايات شعبية عالمية، فرنسية وافريقية وأوروبية من تواريخ وأحقاب مختلفة..

الأطفال يألفون كتبهم:

في أحد رفوف المكتبة، كانت مجموعة صغيرة من الكتب تشكل سلسلة واحدة، هي سلسلة قصص قام مجموعة من الأطفال بتأليفها ،

ورسم الرسومات لهذه القصص أيضا ، وقد تم ترجمة هذه النصوص من الفرنسية إلى العربية وبالعكس، من قبل المعلمين الذين تعاونوا في هذا المشروع مع الأطفال في مدرسةBoissy- st- Leger في مدينة L'Ecole J'acques.

فالأطفال كانوا مجموعة من صفوف قبل التمهيدي، أعمارهم بين 5 إلى 6 سنين. وقد كانت هذه النصوص والرسومات ثمرة ورشة عمل معهم قام بها المعلمون والمعلمات في تلك المدرسة على مدار عدة أسابيع. حيث قام المعلمون بنقل القصص من أفواه الأطفال وكتبوها كما هي، قصص بسيطة، يحكي فيها الأطفال عن ولد صغير تعتني به أخته الكبيرة. أو قصة سمكة حمراء قام ولد صغير بطعنها بشوكة، ولكنها استطاعت أن تتعافى في النهاية وتسبح من جديد.

بعد جمع المواد قامت المدرسة بالاتصال بدار النشر L'harmattan التي قامت بإصدار هذه القصص ونشرها لتوزيعها على بقية المدارس والمكتبات في باريس، من هذه القصص: القلعة المسحورة، الساحرة والزهرة، سيدولا.

كتاب آخر من السلسلة نفسها قام بكتابته ورسم رسوماته أطفال من الصف الأول والثاني التمهيدي في تلك المدرسة وهو بعنوان «البحيرة الصغيرة» وهذا الكتاب صدر بلغات ثلاث، العربية والفرنسية والبرتغالية. حيث كانت أسماء الأطفال المؤلفين تزين غلاف الكتاب: أسامة، فانيسا ، كاتي، جميلة،... وصورة جماعية لهم تملأ غلاف الكتاب كمؤلفين صغار.

بعد نجاح هذه التجربة، قامت دار النشر نفسها بالتنسيق مع مدارس أخرى لإصدار سلسلة جديدة من القصص التي يكتبها الأطفال أنفسهم.

«عالَم فلسطيني» في باريس

إلى جانب العديد من القصص الشعبية العالمية والعربية، كانت هناك قصص شعبية فلسطينية أو قصص قام بكتابتها كتاب فلسطينيون، مثل كتاب الحطاب الذي هو في الأساس حكاية شعبية، كتاب نمولة، نص نصيص، لست شقيا... وكتاب آخر ذائع الصيت، حيث تم إصدار حوالي 10000 نسخة منه وتم توزيعه على المكتبات ومعارض الكتب والمدارس في باريس، هو كتاب «عالم فلسطيني».

هذا الكتاب مجموعة من الصور الحية واللوحات الفنية المتخيلة عن فلسطين كواقع يومي وحياة شعب. يحوي 300 صورة ولوحة فنية وتشكيلية تم جمعها من أعمال العديد من الفنانين والرسامين والتشكيليين الفلسطينيين الذين يقيمون في دول مختلفة من العالم. الأعمال الفنية اختلفت في أدواتها، رسم مائي وألوان زيتية، أقلام تلوين، جبص... وبعضها صور فوتوغرافية لحارات ومشاهد من مدن فلسطينية.

وقد تم ترتيب كل هذه اللوحات والصور بشكل يستطيع فيه الكتاب أن يروي قصة حياة بشكل فني بسيط للأطفال. وقد جاء في مقدمة الكتاب: «مجموعة الصور هذه تعطي للأطفال هنا وهناك نظرة جديدة عن الإبداع الفلسطيني. عبر صفحات هذا الكتاب يستطيع الأطفال من خلال ربط الأفكار، التعرف على أحد العوالم العربية، وبالتالي يتسنى لهم التبادل في فلك الثقافة بمجرد قراءة الصورة. لقد شارك في هذا المشروع حوالي أربعون فنانا فلسطينيا ليحكوا لنا بلدهم على مدار الأيام».

هذا الكتاب الذي يحقق متعة كبيرة لدى الطفل في أن يرى صورة نبتة أو بيت يألفه في كتاب بين يديه، مما يثير نشوته وخياله...أيضا فإن هذا الكتاب يقدم الفرصة للأطفال الفلسطينيين ليروا واقعهم من خلال أعمال فنية يستطيعون الإحساس بها والتواصل معها، وليتعرفوا على فنانيين فلسطينيين من مناطق مختلفة من العالم.

تم نشر هذا الكتاب بالاشتراك بين Thierry Magnier ودار الشروق الصغير- رام الله، وتم إنجازه بالتعاون مع وزارة الثقافة الفلسطينية.

على مستوى الإعلام، كتبت إحدى الصحف الفرنسية L'Humanite إعلانا عن الكتاب:

«إذا اشتريت كتاب «عالم فلسطيني» فإن كتابا آخر سيذهب مجانا إلى فلسطين».

وأشادت بجمالية الكتاب عشرة صحف فرنسية أخرى، لبساطته وغناه ككتاب يشمل جانب من الفن والحياة ويعرف بالفنانيين الفلسطينيين أيضا. رغم أن الكتاب لم يعكس الجوانب المدنية والحضرية لفلسطين بشكل كافٍ، وهذا يشكل مأخذا على الكتاب. فقد ركزت الصور والأعمال الفنية بشكل أكبر على التراث بأشكاله المختلفة ولم تركز بشكل كاف على المدنية والمعاصرة.

وهذا الكتاب بلا كلمات، يصلح لكل الأعمار ولكل الأطفال. وهو كمشروع جاء في الأساس من مشروع آخر مختلف، وهو إصدار كتب تعتمد على مجموعة صور تتناول موضوعا محددا، مثل كتاب «عالم الحدائق»، فهو كتاب يحوي صورا للأشجار والأعشاب والزهور والعصافير... وكل ما يرتبط بعالم الحدائق، بحيث يبدأ الطفل في سنينه الأولى بالتعرف على الطبيعة المحيطة به من خلال صور تحفز خياله وتوسع من معرفته.

فعملت دار النشر على تطوير الفكرة لصالح مشروع آخر، وهو تخصيص كتاب يحمل جوانب الحياة المختلفة لشعب من الشعوب، ليبدأ الطفل بالتعرف على غيره من الناس وعلى جوانب من حياتهم. ف «عالم فلسطيني» كان جزءا من سلسلة كتب تتناول عوالم شعوب وثقافات متعددة، رغم انه الكتاب الأول في هذه السلسلة.

نهاية

هكذا كانت مكتبة معهد العالم العربي في باريس، والذي مهمته الرئيسية نشر الثقافية العربية هناك، من خلال أنشطته الثقافية ومن خلال قسم النشاطات التربوية الذي يقوم بتنظيم أنشطة للأطفال وبإصدار كتب لهم بالاشتراك مع العديد من دور النشر الفرنسية والعربية.

* ملاحظة: لمن يرغب في الإطلاع على الكتب، لدى المركز بعض هذه الكتب التي تم الحديث عنها في المقال

Travel and research for this article was supported by the European Cultural Foundation MMP Media Programme - www.eurocult.org.

أنس العيلة
مركز القطان للبحث والتطوير التربوي